



الجمهورية العربية السورية

وزارة التربية

المركز الوطني للمتميزين

حلقة بحث بعنوان :

مسيرة الهجاء عبر العصور

تقديم الطالبة : جودي الأشقر

الصف : العاشر

بإشراف المعلمة : ريم حيدر

٢٠١٥ - ٢٠١٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بحار أدبنا العربيّ وافرة، و الغوص في أعماقها يغني العقل و يضفي جمالاً على الرّوح و يتناغم مع عواطف القلب لينتج موسيقا بشريّة عنوانها الحياة و أصلها ذوق الإنسان، فمن الاستحالة أن تجد حضارة لم يلعب فيها الأدب دوراً لأنّه مفتاح سموّ الشّعوب و رقيّها، و الأدب قبل أن يكون أدباً كان وسيلةً لاستجرار الحكم و المشاعر و التّعابير من آبار النّفس البشريّة الغنيّة بالمعارف من جهة، و الأحاسيس من جهةٍ أخرى...

و لأنّ الإنسان أدرك قيمة الأدب و أدرك أنّه موجودٌ ما وجدت البشريّة، عمل على تنميته و تطويره، و قسمه إلى شعرٍ و نثرٍ، و عاد وقسم كلاً منهما بناءً على أسسٍ متعدّدة، فكانت القصّة و الرواية و المقالة و...، و كان الشعر الملحميّ و القصصيّ و التّعليميّ و...، و لما قسم الشعر بناءً على الغرض تمكّن من حصره في سبعة أغراضٍ أساسيّةٍ كان الهجاء واحداً منها، و في حال تتبّعنا أقوال التّقاد و الأدباء عن أنواع الأدب لوجدنا أنّ جُلّهم يجمعون على أنّها تختلف بالمضمون إلّا أنّها لا تختلف بالنّاحية الجماليّة و المعرفة التي تقدّمها للقارئ، كما أنّ محتواها لا يشدّ عن الآداب العامّة و الأساليب الرّاقية، و أمام هذا الكلام اعترضني غرضٌ من أغراض الشعر ألا و هو الهجاء الذي اعتقد بعض العامّة أنّه خالف القاعدة و شدّ عن بقيّة أنواع الأدب، و ظنّ بعضهم الآخر أنّه كان فنّاً جميلاً و تابعاً لغيره من أقسام الأدب، و السّؤال هنا :

هل الهجاء فعلاً سبّب انحداراً للأدب العربيّ عبر العصور أم أنّه أضفى جمالاً عليه ؟

هل تمكّن الشعراء من التّأثير فيه و قرضه بشكلٍ إبداعيّ ؟ أم أنّه فنٌّ لا مجال للإبداع فيه ؟

اجتذبني الموضوع و بحثت فيه بهدف الظفر بالخبر الأقرب إلى الصّحة، و جمعت قدراً جيّداً من المعلومات المتوافرة عساني أقدم وجهة نظرٍ جديدةٍ و مقبولةٍ في عالم الأدب، و لست - في هذا - طالبةً تبني رأبي أو تفكيري، بل على العكس نعم المسلك النّقد البناء و بئسه الهدام، و النّفكير المنطقيّ يتّخذ أوجهاً متعدّدةً..

و بالعودة إلى حديثنا السّابق، أعود و أكرّر بأنّني حاولت بقدر الإمكان أن أحلّل النّتائج بشكلٍ عقلائيّ محرّرٍ من قيود التّبعية و الآراء المحدّدة، آملّةً أن أكون قد راعيت فيه خطوات البحث العلميّ و نظّمت معلوماتي بالشّكل السّليم

و الله وليّ التّوفيق ..

النص (الأزدي) : الهجاء (مفهومه و أقسامه)

مفهوم فنّ الهجاء :

الهجاء هو أدبٌ غنائيٌّ، يعبرُ الأديب فيه عن غضبه أو احتقاره أو استهزائه، و قد يكون هذا الغضب موجّهاً نحو فردٍ أو جماعةٍ، أو متناولاً ذمّ صفاتٍ و شتم أعرافٍ، و لعلّ أكثر أنواع الهجاء استعمالاً هو الهجاء الذي يهجو فيه الشّاعر شخصاً آخرًا، مستهدفاً صفاته النّفسيّة كالجبين أو البخل أو الجهل..

و الهجاء هو فنٌّ من فنون الشّعريّة العربيّة التي تطوّرت عبر العصور الأدبيّة المتتابعة وأخذت كامل أبعادها، و " قد جاء هذا التطوّر نتيجة تغيّر مفاهيم الهجاء و أساليبه من عصرٍ لآخر، و اختلاف دوافعه و أسبابه و تباين أذواق النّاس من حقبةٍ لأخرى " ^١، فعلى سبيل المثال الهجاء في العصر الجاهليّ يختلف عن الهجاء في العصر الأندلسيّ اختلافاً واضحاً من حيث الدّوافع و المضمون و إن اتفق معه في الفكرة ، و إذا أردنا أن نعبر عن الهجاء بمعنى بسيطٍ جليّ فنستطيع أن نقول بأنّه نقيض المدح، ففيه يتغنّى الشّاعر بسوء صفات المهجّو و ينظم النّقائض له، على عكس المدح الذي يتناول الشّاعر فيه شيم الممدوح النقيّة و طباعه الخلوقة و الصّفيّة و سجلّ أعماله الحسنّة..

" و كان النّقاد القدماء قد أشاروا إلى رسوخ فنّ الهجاء، فذهب (ابن سلام) إلى أنّ الشّعريّ يندرج في أربعة موضوعاتٍ عدّ الهجاء واحداً منها و هي : الفخر و المديح و النسيب و الهجاء، و جعل (أبو تمام) الهجاء واحداً من أغراض الشّعريّة العشرة التي ضمّنها حماسته، و رأى (قدامة) أنّ الشّعريّ ينحصر في أربعة مجموعاتٍ هي المديح و الهجاء والحكمة و اللّهُو، و جاء (أبو هلال العسكريّ) فأحلّ الهجاء محلاً أثيراً في (ديوان المعاني) فوضعه في الباب الثّالث من أبواب

^١ عيسى _ فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسيّ ص ١٢

الشعر التي قسمها إلى اثني عشر باباً، و هذا حذو أولئك النقاد (المرزبانى) في موشحه، و (ابن رشيق) في عمدته " ...

ننوه بأننا عندما شرحنا مفهوم الهجاء في أول الفقرة، عبرنا عنه بكلمة (أدب) و لم نقتصر على كلمة شعر، فالهجاء كان نثراً في بعض الأحيان و خصوصاً في العصر الحديث .

أقسام الهجاء :

قسم النقاد الهجاء إلى :

(١) **هجاءً شخصيً** : يعتمد هذا الهجاء على مهاجمة الفرد بشكلٍ عنيفٍ، لدرجةٍ دفعت بعض الأشراف و الوجهاء إلى انقضاء شره بالمال، و لا يوجد في هذا الهجاء ما يجذب القارئ سوى نكتةٍ أو نادرةٍ مضحكةٍ، لأنه من أكثر أقسام الهجاء تورطاً بالرذيلة و الشتم، فهو مبنيٌ على الحقد و متأثرٌ بالأهواء الشخصيّة لا بالعدل، فإذا أراد أحدهم أن ينجح في نظم الهجاء الشخصيّ، لا بدّ له من أن يخفي نزعة الضغينة التي يملكها تجاه الفرد المهجور في قصيدته.

(٢) **هجاءً أخلاقيً** : " موضوعه الجرائم الأخلاقيّة أو الدنيّة و المفساد الاجتماعيّة و العادات القبيحة والعيوب الإنسانيّة على وجه العموم " ^٢، أي أنّ الأديب عندما يهجو أشخاصاً هجاءً أخلاقياً فإنه لا يختصّ بهجاء فردٍ واحدٍ، بل يهجو مجموعةً معيّنةً لأنه يرى تلك الصّفة السيئة في عدد كبيرٍ من أفراد هذه المجموعة فيدفعه ذلك إلى التعميم، كهجاء المعريّ رجال الدين.

(٣) **هجاءً سياسيً** : يتضمّن العديد من الألوان، فقد يهجو فيه الأديب كلّ ما يتعارض مع المذهب أو الدين الذي ينتمي إليه، معللاً هجاءه بأنه في سبيل الحقّ - و إن لم يكن كذلك - ،

^١ المرجع السابق نفسه ص ١٢

^٢ حسين _ محمد، الهجاء و الهجّاون في الجاهليّة ص ٢٠

، أو قد يصوّر سخطاً على النّظم الاجتماعيّة القائمة دون أن يتبنّى أراء حزبه أو مذهبه، أو قد يستخدمه لتنظيم الحياة السّياسيّة و ما شابه، حيث يختلف كلّ لونٍ تبعاً للعصر الذي مرّ فيه .
كما أنّ هناك أقساماً أخرى للهجاء ترتبط بالأقسام الأنفة الذّكر أو تعدّ جزءاً منها كالهجاء الدّيني ،و الهجاء الاجتماعي ،و الهجاء القبليّ .

النقد الثاني : امتداد الهجاء عبر العصور :

ذاع الهجاء منذ قديم الزمان و حتى وقتنا هذا ، و امتد عبر سنّة عصورٍ أساسيّةٍ ، كان لكلّ منها تأثيرها عليه ، و ضمن هذا الباب سنتكلّم عن الهجاء و الهجّائين فيها بدءاً من الأقدم :

الهجاء في العصر الجاهليّ :

تأثّر الهجاء في العصر الجاهليّ ببيئة الصحراء الجاهليّة العربيّة، التي تقوم على التّنافس و الحروب و العصبية القبليّة، فأصبح الشّعر جزءاً مهمّاً في القبيلة، و احتلّ الشّعراء مكانةً عظيمةً في قومهم و خصوصاً الهجّائين منهم، لدرجة جعلت أفراد القبيلة تتبعهم ولا تشذّ عنهم، (كالكلّبة العربيّ) الذي كان أحد فرسان بني تميم و سادتها، و لربّما استحقّ الشّاعر تلك المكانة في قومه، فقد كان يفتخر بقبيلته و يهوّّل على أعدائها، و كان هجاؤه أحدّ من الرّمح و أشدّ من الصّارم، كقول (عبد القيس بن خفاف البرجميّ) :

و وقع لسانٍ كحدّ السّنان
و رمحاً طویل القناة عسولاً^١

و بعيداً عن هذا الهجاء القبليّ، نبغ لونٌ جديدٌ من ألوان الهجاء السياسيّ يعبر عن العاطفة الإنسانيّة و يهاجم الملوك المتسلّطة، و يترقّع عن الأحقاد الشّخصيّة ليستند إلى عاطفة إنسانيّة دائمة، يتجاوب معها النّاس في كلّ زمانٍ و مكانٍ، كهجاء (المتلمّس) (عمرو بن الهند) مهّداً :

ألك السّدير و بارقٌ
و مُبائضٌ و لك الخورنق

و القصر ذو الشّرفات من
سنداد والنّخلُ المبسّقُ

فلئن تعشّ فليبلِغن
أرمأحنا منك المخنق

و الظلم مربوطٌ بأف
نية البيوت أغرّ أبلق^٢

^١ حسين _ محمد ،الهجاء و الهجّؤون في الجاهليّة بتصرّف ص ٦١
^٢ حسين _ محمد ،الهجاء و الهجّؤون في الجاهليّة ص ١٣٠ - ١٣١ بتصرّف

و قد بزغ الكثير من الهجائين في هذا اللون منهم : (الحارث بن ظالم الذبياني) و (طرفة بن العبد) و (جابر بن حني التغلبي) و (يزيد بن الخدّاق الشنّي) و المبدع (المتلمّس) ..

و بالتّمعن ببيئة الجاهليّة نجد آثاراً أخرى ناجمةً عن تأثر الهجاء الجاهليّ ببيئته كنبذه الضّعف و الصّفات التي تتعارض مع العادات والتقاليد العربيّة الموروثة مثل البخل و الجبن والقعود عن الثأر و قبول الدّيّة، و اعتماده على تناول الهجاء الشّخصيّ بشكلٍ بدائيّ دافعه الغضب السّريع الذي ينتزع ما فيه من قيمة فنّيّة، " فالهجاء الشّخصيّ في الجاهليّة هو معركةٌ غير مهذّبة بين فردين يتشّاتمان، ترى فيه كلّ ألوان العنف الذي يصحب مثل هذه الظّاهرة، ففيه الاستعلاء على الخصم بكلّ شيء، و فيه السّباب المقدّع الذي يتعرّض لأغلظ العورات دون احتشام، و فيه التّعبير و التّهديد " ^١ ، كما أنّه محدود المشاعر و يعتمد على تكرار المعاني.

و من أبرز شعراء الهجاء في هذا العصر الشّاعران المخضرمان (الحطيئة و حسان بن ثابت) بالإضافة إلى (الأعشى)، ذلك الشّاعر التي كانت جلّ أهاجيه سياسيّة قبلية، فقد كان متعصباً لقبيلته يعبر عن آرائها و يمجد بطولاتها و يهجو أعداءها بشعرٍ شديد و عنيف، و قد بلغ قمّة مجده السّياسي يوم ذي قار، فكان أروع ما قاله في ذلك اليوم قصيدةً أنشأها قبل الحرب، يتهدّد فيها الفرس و يستقرّ قومه للقتال ^٢ ، افنتحها قائلاً :

أثوى ، قصّر ليلةً ليُروداً و مضى و أخلف من قُتيله موعداً

و مضى لحاجنه و أصبح حبلها خَلْفاً و كان يظنّ أن لن ينكدا ^٣

أما (الحطيئة) فهو أعرابيٌّ غليظٌ احترف الهجاء و تاجر به، فراح يهاجم النّاس بالشّتم، " و لا يفرّق بين أحدٍ منهم - شريفهم و وضيعهم، و محسنهم و جاهلهم - و انتزع منهم رزقه بلسانٍ سليطٍ لا يبالي ما يقول " ^٤ ، و لربّما للبؤس الذي عانى منه (الحطيئة) دورٌ كبيرٌ في رداءة تصرّفاته، فهو الحاقّد على الظّروف التي أنجبتّه إلى الحياة ملعوناً و منبوذاً، و هو النّاقم الذي دفعه بغضه إلى أن يعامل النّاس كما عاملته الحياة، فكان مصدر رهبةٍ لهم في كثيرٍ من

^١ المرجع السابق نفسه ص ٩٥ - ٩٦

^٢ المرجع السابق نفسه ص ١٤٠

^٣ المرجع السابق نفسه ص ١٥١

^٤ المرجع السابق نفسه ص ١٠٣

الأحيان، و لم يقتصر هجاؤه على الغرباء فقط بل هجا أقرباه كذلك (أمّه و زوج أمّه) ، و لم يسلم هو من لسانه فهجا نفسه قائلاً :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلمًا بشرّ فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه ففُبح من وجهٍ و فُبح حاملة¹

و عدا (الأعشى) و (الحطيئة) و (حسان) نذكر من هجائي الجاهلية : (النابغة الذبياني) و (عروة بن الورد) و (طرفة بن العبد) و (المتلمس)، بالإضافة إلى (الحارث بن حلزة) الذي كان مورخاً و شاعراً و مدافعاً عن قبيلته في الوقت ذاته .

الهجاء في العصر الإسلامي :

كان هجاء العصر الإسلامي يدور بين المشركين و المسلمين ،حيث أنّ المشركين كانوا يهاجمون الرسول (ص) و أصحابه فيردّ عليهم شعراء المسلمين بنفس الطريقة مدافعين عن رسول الله و رسالة الحقّ، و كان الرسول (ص) قد أدرك قيمة الكلام و أثره على الناس و دلّ على ذلك تأييده لاستخدام سلاح الشعر من أجل الردّ على المشركين و دحض افتراءاتهم، و اختياره دعاة الأحزاب السياسيّة من الشعراء.

إنّ ظهور الإسلام هدّب الهجاء مصداق قول النبيّ (ص) : " من قال في الإسلام هجاءً مقدّماً هدر لسانه " ، و كذلك اهتمام الرسول به كان له أثر في نموّه و لكن لم يكن له أثر واضح في تطوير أسلوبه ، فقد بقي جاهلياً في الصّميم يعتمد على الأنساب و المثل الجاهليّة..

من أشهر هجائي الإسلام نذكر (حسان بن ثابت) الذي لُقّب بشاعر النبيّ لكثرة ما قاله للدّفاع عن الدّعوة الإسلاميّة، و ممّا قاله دفاعاً عن النبيّ (ص) نذكر قصيدة (و كان الفتح) التي قرّضها بعدما هجا (أبو سفيان) الرسول الكريم فقال فيها :

هجوت مباركاً براً حنيفاً أمين الله شيمته الوفاء

¹ من معرفة مدرسيّة سابقة للطالب

أتهجوه و لست له بكفءٍ ؟

فشركما لخيركما الفداء¹

فيما عدا حسّان نضيف (كعب بن زهير) و (عبد الله بن رواحة) و (الحطيئة) الذي استمرّ في هجائه المقدّع و الفاحش في عهد الخلفاء الراشدين أيضاً فهجا (الزّيرقان) و هذا ما اضطرّ (عمر بن الخطاب) إلى سجنه لفترةٍ أطلق سراحه بعدها .

الهجاء في العصر الأمويّ :

حظي الشعراء الأمويّون بمكانةٍ سياسيّةٍ كبيرةٍ كتلك التي كانت في الجاهليّة، لأنّ الهجاء السياسيّ كان من أظهر فنون الشعر في العصر الأمويّ، فقد عرف الحكّام الأمويّون ما للشعر من أثرٍ في نفوس النّاس، فاعتمدوا عليه ليخبروا النّاس بما يدبّروه من مشاريعٍ و يتحصّسوا رأيهم حولها، و ليهجوا معارضيتهم في المجامع و بذلك أصبحت السياسة حرفةً يكسب منها الشعراء، و قد أدّى اهتمام الرّعاء إلى استفحال الهجاء السياسيّ فجمت عنه القتالات في بعض الأحيان .

و إضافةً إلى ألوان الهجاء السياسيّ المذكورة انتشرت ألوانٌ أخرى كالهجاء القبليّ و الهجاء السياسيّ المرتبط بالهجاء الاجتماعيّ و غيره .

أمّا الهجاء الشّخصيّ في العصر الأمويّ فقد كان معظمه هجاءً خبيثاً و فاحشاً، لأنّ شعراءه اتّبَعوا أسلوب (الحطيئة) و تاجروا به، و من أمثال هؤلاء الشعراء نذكر : (الأقيشر) و (الحكم بن عبدل)، و لكن و بالمقابل نشأ على يد هذه الطائفة من مجان الهجائيين نوعٌ من الهجاء القصير اللّاذع الذي لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة و هو هجاءٌ سهلٌ و ساخرٌ، كما انتشر لونٌ جديدٌ من ألوان الهجاء يدعى النّقائض، لم يهدف إلى الهجاء و الدّمّ فقط، بل إلى إظهار البراعة اللّغويّة و التّفوق الأدبيّ على الخصم، لذلك كان الشّاعر ينظم نقائض تقوم على رويّ و بحر و قافية شعر الخصم، ليظهر تفوّقه عليه في نفس البحور التي نظم الخصم عليها قصيدته، و من أشهر شعراء النّقائض نذكر (جرير) و (الفرزدق) اللّذين دام التنافس بينهما حوالي أربعين عاماً و تهاجا بما لم يتهاج بمثله شاعران في جاهليّةٍ أو إسلامٍ .

¹ من معرفة مدرسيّة سابقة للطالب بتصرّف

كان (جرير) خامل الأجداد و شديد الشعور بالنقص و ساخطاً على القدر الذي أعطاه أسوء الظروف، أما (الفرزدق) فقد كان عظيم الأجداد و شديد الشعور بامتيازه و تفوقه، فعندما رأى (جرير) و رأى فيه ذلك المنافس الخطير الذي نبغ في شعره وقف في طريقه ليضع حداً له، و لكن (جرير) كان يمتلك موهبة شعريّة كبيرةً وصبراً و ذكاءً، فلم يتمكّن (الفرزدق) منه .

كما أنّ (جرير) كان ممتازاً في حسّه اللفظي و دقّة ملاحظته و قدرته على التقاط عيوب الخصم و تليق الإشارات له، في حين لم يهب الله (الفرزدق) ما وهبه (الجرير) من سلاسة في الذوق و امتيازٍ في الحسّ اللفظي فألفاظه كانت خشنة جافّة، و على الرّغم من ذلك كان (الفرزدق) الشاعر الوحيد الذي تمكّن من مجابهة (جرير)، فإن لم يبلغ مبلغه في الذكاء و هدوء الأعصاب فقد استطاع أن يبرع في خلق الصّور و ابتكارها و التّماذي في توليدها.

و قد أصيب بعض الهجائيين الأمويين بهوسٍ في الهجاء حيث أضافوا النّقائض إلى قصائدهم التي يرثون أو يمدحون فيها، و لعلّ أكثر النّقائض انتشاراً في ذلك العصر هي نقائض (جرير) و (الفرزدق)، نذكر منها :

الفرزدق : يا بن المراغة ! أين خالك ؟
إنني خالي حبيش ذو الفعّال الأفضّل
و إليه كان جباءً جفنةً يُنقل^١
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم

جرير : كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله

مثل الدليل يعوذ تحت القرمّل

و افخر بضبة إن أمك منهم

و ليس ابن ضبة بالمعّم المخول^٢

من خلال ما استعرضناه من معلومات، نرى أنّ (جرير) و (الفرزدق) من المبدعين في مجال الشعر، و لكن مشكلتهما أنّهما صرفا جلّ موهبتهما و إبداعهما على فنّ النّقائض فقط ولم يشغلها شيءٌ إلا إظهار البراعة و التفوق على الخصم، فاسترسلا بالنّقائض استرسالاً كثيراً، و استخدموا كلّ الوسائل التي تساعدهم على ذلك بما فيها السباب الفاحش .

الهجاء في القرن الثاني الهجري :

تطوّر الهجاء في القرن الثاني الهجري - الموجود ضمن فترة امتداد العصر العباسي الأول و العصر العباسي الثاني - تطوراً واضحاً، نتيجة تغيّر البيئة و الظروف الاجتماعية المحيطة، فتأثّر بالتقافات و الحضارات التي عاصرها و اتخذ عقيدةً سار على نهجها، " كما نشأت فيه اتجاهاتٌ جديدةٌ، كهجاء المغنّين و هجاء رجال الدين و هجاء المدن، بالإضافة إلى اتهاماتٍ بالزندقة و الشذوذ في بعض الأحيان كأهاجي (أبو نؤاس)، و لعلّ أكثر ما كان يميّز الهجاء العباسيّ عن غيره من الأهاجي هو ميله نحو الشعبيّة و اقترابه من قلوب النّاس، و تخصّصه بالفرد وحده دون قبيلته أو مذهبه .

و كثيراً ما كان يهبط هذا الهجاء إلى الشتم و السّباب المقدّع، " كنتك الأهاجي التي كانت تدور بين أفراد عصابة المجان، و تزخر بألفاظٍ و تعابيرٍ يندى لها الجبين" ¹

و لكن من النّاحية الأخرى، كثيراً ما كان يرتفع و يعلو ليصل إلى فنّ الهجاء السّاخر الذي يعتمد على البراعة الدّهنيّة السّاخرة و الرّوح المرحة، بهدف إضحاك النّاس على المهجّو و سخريتهم منه، بعيداً عن السّباب و الفحش و توجيه الاتّهامات أو الانحدار أخلاقياً .

من أبرز هجائي هذا العصر (ابن الرّومي)، الذي برع في الهجاء السّاخر براعةً كبيرةً بسبب دقّة ملاحظته و قدرته على النّقاط العيوب الجسديّة و النّفسيّة، و معرفة نقاط الضّعف عند المهجّو و تضخيمها لتصل إلى أوسع ما يمكن بما يثير الضّحك و الفكاهة عند المتلقّي، و غيرها من الأسباب التي أعطت تميّزاً لهجاء (ابن الرّومي)، فحذا حذوه الكثير من الشعراء، و اتّبعا منهجه في الهجاء .

من أبيات ابن الرّومي التي تصوّر الهجاء السّاخر، هجاؤه رجلاً ذا أنف كبير قائلاً :

أنفت منه الأنوف

لك أنفٌ يا بن حربٍ

و هو في البيت يطوف ²

أنت في القدس تصلّي

¹ عيسى _ فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسي ص ١٥
² من معرفة مدرسيّة سابقة للطالب

بعد قراءة البيتين السابقين نجد أنّ المقطعات القصيرة استمرت حتى هذا العصر و ذلك بسبب
رغبة الشاعر في ذبوع و انتشار قصيدته بين الناس و سرعة إيلاّم المهجور .

من هجائي العصر العباسي فيما عدا ابن الرومي نذكر : (أبا نواس) و (بشار بن برد) و
(البحرّي) و (المتنبي) إضافةً إلى (أبي العلاء المعري) .

الهجاء في العصر الأندلسي :

تطوّر مفهوم الهجاء في العصر الأندلسي تطوّراً واضحاً، و انتشر الهجاء القبليّ في العصور
الأولى منه فقط، و لكن بعد ذلك خمدت تلك العصبية و تمكّن الهجاء الأندلسي من الخروج منها
ليتسع و يشمل أنواعاً أخرى من الهجاء كالهجاء الاجتماعيّ و الهجاء السياسيّ الذي كان من
أكثر أنواع الهجاء انتشاراً في العصر الأندلسي، و ذلك لدوافعٍ سياسيةٍ فرضتها ظروف الأندلس
، و تتوّعت موضوعاته بين هجاء الملوك و الحكّام و هجاء الشعوبية و هجاء البربر و هجاء الروم
و اليهود و هجاء الفرنجة..، و كثيراً ما كان يتأثر هجاء الملوك و الحكّام ببطش الملوك
المتسلّطين الذي يعوقه عن أداء رسالته، مثل (ابن فرج الجيّاني) الذي تعرّض لضرر
(المستنصر المرواني) و بطشه فمات في سجنه، و لم يقتصر هجاء الشعراء على الحكّام و
الملوك فقط، بل هجوا أحياناً كلّ من يسير على نهجهم و يعمل لمصالحهم كالوزراء و العمال و
القضاة و الفقهاء الذين باعوا ضمائرهم إرضاءً لمصالحهم الشخصية .

أمّا الهجاء الاجتماعيّ فقد كان يمثّل سخط الفرد على المجتمع أو يتناول الرذائل الخلقية أو
يتضمّن هجاء المغنّين مثل (زرياب)، أو هجاء المدن كهجاء (ابن القاسم البطلبيوسي) إشبيلية
قائلاً :

لكلّ بؤسٍ و ساحه

يا حمص لا زلتِ داراً

إلا و ما فيه راحه^١

ما فيك موضع راحة

^١ عيسى _ فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسي ص ١٥٠

ولكنّ الملفت للانتباه هو توجّه بعض الشعراء الأندلسيين أحياناً إلى هجاء الفلاسفة و علماء الفلك و النجوم و اتّهامهم بالخروج عن الدّين، معبرين في هجائهم عن كراهية الشعر للعلوم الجديدة، مصوّرين الأدب بدور الخصم النّافر من كلّ العناصر العلميّة الجديدة، و من أبرز هؤلاء الهجّائين نذكر (ابن عبد ربّه) .

بعد ما استعرضناه نرى أنّ الهجاء الأندلسيّ يميل نحو البساطة و الشّعبيّة، و هذا ما جعله ينتشر بين النّاس و يوافق أذواقهم، كما أنّه هجاء متأثّر بالبيئات و الثقافات التي عاصرها، و مستفيد في ذات الوقت من التّراث القديم و مذاهب المشاركة في الهجاء، كطريقة (الخطيئة) في هجاء النّفس و طريقة (ابن الرّومي) في الهجاء السّاخر، و قلّما تجد هجاءً رذيل اللّسان في العصر الأندلسيّ و لكن لا يخلو الأمر من وجود بعضهم مثل (ابن عبد ربّه) ، ذلك الهجاء الرّافض للعلم - كما ذكرنا سابقاً -، السّاخط و النّائر على الفساد و الفسق في المجتمع بسبب تجربته الحيائيّة التي دفعته نحو التّساؤم و علّمته أنّه ما من خير في الحياة، كما نلاحظ كذلك وجود هجاءات أندلسياتٍ مثل (ولادة) و (مهجة)، الأمر الذي منح الهجاء الأندلسيّ تميّزاً عن أهاجي العصور الأخرى .

من أبرز هجّائي العصر الأندلسيّ - فيما عدا (ابن عبد ربّه) - نذكر : (أبو بكر المخزوميّ الأعمى) و (ابن شرف القيرواني) و (ولادة بنت المستكفي) و المبدع (ابن زيدون) .

و يلي الهجاء الأندلسيّ هجاء العصر الحديث الذي يستمرّ إلى أيّامنا هذه، ويتضمّن مختلف أنواع الهجاء من هجاءٍ سياسيّ و هجاءٍ شخصيّ نفسيّ و جسديّ و هجاءٍ اجتماعيّ بعيد - في معظمه - عن التعصّب المناطقيّ و الفحش، و إنّ هجّائي العصر الحديث كثر نذكر منهم : (أحمد شوقي) و (إيليا أبو ماضي) و (شفيق جبري) .

فضائل الهجاء العامة (في كل العصور) :

التهجاء فنُّ ناقدٌ، ينظر إلى عيوب النَّاسِ و أخطائهم دون أن ينظر إلى فضائلهم، يتناول مادته ببساطةٍ مطلقةٍ دون اللجوء إلى الخيال أو الزخرفة اللفظية لأنَّ الإمعان و التفكير و التروي في اختيار الصّور يذهب قسماً كبيراً من حدّته و تأثيره على الخصم، فهو فنُّ واقعيٌّ لا يلبس المجتمع ثوب الخيال ولا يأسره بفكرةٍ أو معتقديّ، بل يفتح له أبواب الملاحظات التي تقوم على تجارب الحياة، و لذلك نجد أنّه من الضّروريّ أن يستند إلى دقّة الملاحظة لالتقاط عيوب المجتمع و الخصم و اختيار الصّور اللاذعة المؤثّرة بالشكل المناسب الذي يغني مادته ..

التهجاء فنُّ واقعيٌّ كما ذكرنا سابقاً، و هذه الواقعية جعلته عرضةً للتغيّر عبر الزمان فلم تبقى منه إلا عاطفةً إنسانيةً عامّةً تتجاوب معها الإنسانية في كلّ زمانٍ و مكانٍ، أو نكتة و دعابة ساخرة يخلقها الهجّاءون الممتازون بفضولهم و ذكائهم اللّامح و بديهتهم القويّة، دون الإشارة إلى المهجّو بشكلٍ صريحٍ بل بالتلميح إليه متحلّين بهدوء الأعصاب و الصّبر الذي يطغى على الغضب فيحول دون أن يفسده أو يعيب بمحتواه ...

كلّ هذه الخصال التي قدّمتها تجعل الهجاء عرضاً يختلف عن غيره من أغراض الشّعْر، لذلك كان من الطّبيعيّ تحوّلُه إلى فنّ نثريّ خالصٍ و أخذه شكل المقالة أو التمثيلية في بعض الأحيان و خصوصاً في العصر الحديث ..

الغائمة (النتابي) :

بعد ما استعرضناه خلال بحثنا نرى أنّ الهجاء هو تعبيرٌ عن عاطفةٍ معيّنةٍ كغيره من أغراض الشعر و أنواع الأدب، و قد دلّ على ذلك إشارة النقاد إلى رسوخه و حمله رسالة إنسانية في كثيرٍ من الأحيان، فالفحش و السباب فيه أو المتاجرة به أو استخدامه في بعض الأحيان كسلاحٍ يحارب العلم أو كلّ هذا ليس من خصائصه أو سماته الأصلية، بل إنّه يعود إلى أخلاق الشاعر أو معتقداته، و كثيراً ما كانت تتأثر معتقدات الشاعر بعقدةٍ نفسيةٍ حملها أو بيئيةٍ عاصرها، فبيئة الجاهلية على سبيل المثال كانت بيئةً لا تبالي بالفحش في الأقوال فما من قانونٍ ينظّمها أو عدلٍ يحاسبها بل كانت في بعض الأحيان تعتبره سبيلاً لإيجاع المهجّو و التشهير به، و من هنا نجد أنّه من الطبيعيّ أن يقدّم المجتمع البدائيّ أشعاراً خاطئةً في مجال الهجاء، و من الطبيعيّ أيضاً أن تتطوّر هذه الأشعار بتطوّر البيئة و اختلاف عقليات الناس و الشعوب ..

إنّ الهجاء فنٌّ يستطيع الشاعر أن يبدع فيه لأنّه ليس ذمّاً و غضباً فقط، فبمقدار ما يتحلّى الشاعر بالروح المرحّة و دقّة الملاحظة و الذكاء و الفطنة و اللبابة بمقدار ما يبدع في هجائه و بمقدار ما تنتشر و تذيب قصيدته بين الناس، و في حال حاولنا الاستغناء عن الهجاء فإننا حتماً سنعجز عن ذلك، لأنّه عندما تفيض مشاعر الإنسان الساخطة و تنور براكين غضبه سيتشبّه بقلمه جيّداً، و يصبّ ما في أعماقه على الورقة سيلاً مدراراً ، و يخلق فنّاً جميلاً، بسيطاً، قريباً من القلب و يدعى الهجاء ...

نمّ بعونه تعالى ..

المصادر و المراجع :

د.حسين _ محمد ،الهجاء و الهجّؤون في الجاهليّة، مطبعة أحمد المخيمر، الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز، الطّبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧ م

د.حسين _ محمّد، الهجاء و الهجّؤون في صدر الإسلام، المطبعة النّمونجيّة في القاهرة، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، الطّبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨ م

د.عيسى _ فوزي ،الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطّباعة و النّشر في الإسكندريّة، الطّبعة الأولى، الإسكندريّة ٢٠٠٧ م

د . هدّارة _ محمّد ، اتّجاهات الأدب في القرن الثّاني الهجري، دار المعارف في القاهرة، الطّبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣ م

فهرس الموضوعات :

المقدّمة	٣ - ٢
الفصل الأول (مفهوم الهجاء)	٥ - ٤
الفصل الأوّل (أقسام الهجاء)	٦ - ٥
الفصل الثّاني (الهجاء في العصر الجاهليّ)	٩ - ٨ - ٧
الفصل الثّاني (الهجاء في العصر الإسلاميّ)	١٠ - ٩
الفصل الثّاني (الهجاء في العصر الأمويّ)	١١ - ١٠
الفصل الثّاني (الهجاء في القرن الثّاني الهجري)	١٣ - ١٢
الفصل الثّاني (الهجاء في العصر الأندلسيّ)	١٤ - ١٣
الفصل الثّاني (خصائص الهجاء العامّة)	١٥
الخاتمة	١٦
المصادر والمراجع	١٧
فهرس الموضوعات	١٨